المنعطف اللغوي للفلسفة عن ريتشارد رورتى (المقالة السابعة)

أد/ ناصر هاشم محمد –أستاذ الفلسفة بآداب أسيوط

وضع الفيلسوف الأمريكى ريتشارد رورتي بعض الشروط التي يجب على الفلسفة إتباعها ، إذا أرادت أن تقيم أو تؤسس شيئا ، وهذه الشروط لو نظرنا إليها نظرة موضوعية منطقية، نراعي من خلالها تاريخ الفلسفة، وأبرز إسهاماتها في الحضارة الإنسانية، سنجد أنها شروط من المستحيل تحقيقها والالتزام بها وهي على النحو التالي :

أولا : يجب على الفلسفة من وجهة نظر رورتي التخلي عن نزعتها التأسيسية التقليدية التي سارت عليها منذ القدم ، وأن تستعيد الفلسفة الدور أو المنظور التاريخي بدلا من المنظور الأبدي .

ثانيا : يجب على الفلسفة التخلي عن اللغة الكلية أو الشمولية التي نادي بها التحليلين ، وبعض الفلاسفة الذين قام مذهبهم الدلالي على أن Fodor & Lepore أمثال جيري فودور (1935) ولوبور (1992) الشمول الدلالي يشير إلى المذاهب العامة ، التي تقضي بأن " اللغات " بوصفها كلاً ، أو النظريات بوصفها كلاً ، وأنساق الاعتقادات بوصفها كلاً ، هي وحدها الأمور التي يصح أن نقول عنها ، أنها ذات معنى ، أما معاني الوحدات الصغرى كالكلمات ، والجمل ، أو الفروض ، أو الخطابات ، أو الحوارات ، أو النصوص أو الأفكار ،أو ما شاكل ، فلا تعدو أن تكون معاني مشتقة من معنى الكل

ثالثا : نظر رورتي للمحادثة باعتبارها السياق الأخير الذي يعطي للمعرفة وللفلسفة معناهما ، وقوامها النظري ، والعملي ، لهذا كان يؤكد على ضرورة النظر إلى النقاشات الفلسفية المعاصرة باعتبارها تحولا معينا خاصا بلحظة محددة من المحادثة ،أو كنتاج للأحداث التاريخية ، وللأدوار التي يقوم بها الفلاسفة داخل محادثة ما

رابعا : إن فيلسوف الاختلاف الذي ينشده رورتي يرفض النسقيه والإرث الكانطي، ويخلط بين المعارف بشكل إبداعي ، وهو ما يؤدي إلى تكريس الروح النقدية ويقوي النقد .

: ينظر رورتي للاختلاف باعتباره علاقة ، والفكر العلائقي عنده لا يتأسس على التضاد ، أو خامسا التقابلات المطلقة ، كما أنه لا يطابق بين الحقائق والتواريخ ، والفلسفات ، ومن هنا راعى الفكر الاختلافي اختلاف المفاهيم حتى داخل النسق المعرفي الواحد.

إن فلسفة الاختلاف التي يدعو إليها رورتي هي في جوهرها فلسفة توافقية ترفض ترتيب المعارف ، والخطابات ، والنظريات ، وحتى العقول ، والسلطة ، والمفاضلة بين الحقائق لا تكون إلا على أساس معيار درجة العقلنة والروح النقدية ، وفي هذا السياق يتداخل مفهوم الاختلاف مع العقل وتجربة النقد

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أول من لفت الأنظار إلى تصور اللغة تصورا شموليا هو فتجنشتاين (1951) عندما عرض في رسالته الفلسفية المنطقية " التي تعد برنامجا للتصور الذري المنطقي ، وهو تصور مناقض تماماً للتصور الشمولي، الذي نجد فيه الإحالة صريحة على مبدأ السياق لفريجة (1925) ، وهو المبدأ القائل بأن الأسماء لا تكتسب معانيها، إلا في سياق الجملة

وقد أوضح فتجنشتاين هذا المبدأ في كتابة الآخر " بحوث فلسفية " عندما قال : " إن معنى اللفظ أو الاسم لم يعد محدداً بالطريقة الإشارية أو التصورية التي عرفناها في الرسالة ، وإنما أصبح متوقفا على السياقات أو " الألعاب اللغوية " المختلفة التي يستخدم فيها بطريقة مفهومة في كل مرة ، ولو كان معنى الكلمة منفصلا أو مستقلا عن استخدامها لكانت ذات معنى موحد في كل السياقات والألعاب التي ترد فيها "

إن المطلب الأول الذي ينشده فنجشتاين في اللغة المثالية هو أن يكون هناك اسم واحد لكل شيء بسيط ، بحيث لا يشير نفس الاسم لشيئين بسيطين مختلفين ، والشيء البسيط لا يمكن أن يكون له رمز غير بسيط ، والشيء المركب لا يكون له إلا رمز مركب يحتوي رموز أجزائه

وقد فهم كل من : ويلارد كواين (2000) ، ودونالد دافيدسون (2003) هذه العبارات لفنجشتاين على أنها تعبير واضح عن موقف شمولي جذري ، فنرى كواين في كتابة الكلمة والشى Word And Thing يشدد على التعلق الجذري القائم بين أي جملة مفردة واللغة كلها "

وحينما قال فريجة (1925) " إن الكلمة لا تكتسى معنى إلا في سياق الجملة ، كان عليه أن يمضي رأسا في الاتجاه نفسه ، ويقول إن الجملة (والكلمة بالتبعية) لا تكتسي معنى إلا في سياق اللغة كما دافع "

دافيدسون (2003) عن الموقف الشمولي في مقالته " الصدق والمعنى بقوله " إننا لا نستطيع أن نسند إلى الجملة أو الكلمة معنى إلا إذا أسندنا معنى إلى الجمل والكلمات كلها

أما رورتي وانطلاقا من نظريتة النقدية كان يرى أن " شمولية اللغة مسألة تتعلق باللغة التي تتحرك في فراغات تسبب فيها فشل كل الفروض التي أخذت بنقط بداية طبيعية للتفكير ، أي نقط بداية سابقة على الطريقة التي تتكلم بها ثقافة معينة ومستقلة عنها . ومن أمثلة هذه الفروض والاقتراحات المرفوضة . " الأفكار الواضحة المتميزة عند " ديكارت " (1650) ، والمعطيات الحسية عند التجريبيين ، ومقولات الفهم الخالص عند " كانط (1804) وبناءات الوعي السابقة للغة وما أشبه ذلك

ويورد رورتي بعض العبارات لبعض الفلاسفة كأمثلة على هذه اللغة الكلية الشمولية يذكر منها على سبيل المثال مقولة " مارتن هيدرجر " (1976) " إن الكلام عن اللغة يكاد بالضرورة أن يجعل منها موضوعا عندئذ تتلاشى حقيقة اللغة

وعبارة " شارلز بيرس " (1914) التي يقول فيها " الإنسان يصنع الكلمة ، والكلمة لا تعني إلا ما أراد الإنسان أن يقصده بها ، وذلك فحسب بالنسبة لإنسان آخر ، ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يفكر إلا بواسطة كلمات ، أو من خلال رموز أخرى ، فإن هذه الكلمات أو الرموز يمكن أن تستدير إليه ، وتقول : إنك لا تغني شيئا لم نعلمك إياه ، وذلك فحسب بقدر ما توجه كلمة تعبر عن تفكيرك .. إن الكلمة أو العلاقة التي يستخدمها الإنسان هي الإنسان نفسه ، وهكذا فإن لغتي هي المجموع الكلي لذاتي "

وينتقد رورتي هذه النظريات الشمولية للغة لأنها من وجهة نظره تترك مسائل كالفهم ، والترجمة ، والتواصل ، وتغيير المرء لآرائه واعتقاداته دون حل يذكر ، فلكي يشترك شخصان في حيازة مفهوم معين يتعين عليهما حسب التصور الشمولي أن يشتركا في كل مفاهيمها الأخرى ، بل في كل أنماط الروابط التي تربط بين تلك المفاهيم لدى كل واحد منها ، أي أن على الشخصين باختصار أن يصيرا شخصاً واحداً بالعدد لكي يشتركا في حيازة المفهوم نفسه ، وهذا محال.

لقد أصبحت القضايا الكبرى في البحث الفلسفي هي قضايا وإشكاليات تتعلق بالمنعطف اللغوي ، وأصبحت مفاهيم كالعقلنة والموضوعية ،والحقيقة والخير والصدق من وجهة نظر رورتي هي " ماهيات لا طائل منها

نقد الهيرمنيوطيقا عند ريتشارد رورتي : (المقالة الثامنة)

إن لفظة " هيرمنيوطيقا " يتعلق استعمالها بثلاثة مستويات هي :

الأول : مستوى ميثودولوجي أو منهجي :

من حيث أنها تعين منهجا معينا، أو صنفا من المناهج يستمد نموذجه من الأشكال المختلفة لتأويل النصوص ، حيث تتمثل المهمة في إبراز معنى غير معطي بصفة مباشرة .

الثاني : مستوى ابستمولوجي أو معرفي :

عندما يستعمل لفظة " هيرمنيوطيقا " للدلالة على نمط التفكير (أو النظر العقلي) المتعلق بالمناهج التأويلية ، من أجل تأسيسها وتبريرها ، وبالتالي تحديد المبادئ العامة لمناهج البحث في مجال تفكيك الرموز .

الثالث : مستوى فلسفي :

ويقدم رورتي تصوره الجديد للفلسفة على أرضية المعنى الذي يمنح للدائرة الهيرمنيوطيقية عبر معارضتها بنظرية المعرفة ، وبهذا الصدد تكفي الإشارة إلى أن الهيرمنيوطيقا عند رورتي ليست منهجا للبحث ولا خطابا سويا قابلا للمقايسة ولا بديلا عن نظرية المعرفة، ولا أداة لبناء " حقل لا تاريخي للاتفاق ، إنها عكس ذلك كله إنها خطاب شاذ ولا متقايس ، ودعوى ترك أبواب النقاش والمحادثة مفتوحه ، ومجال للابتكار والتأويل وقول ما لم يسبق قوله ، إنها حقل للاستئناس بكل ما هو غريب وأجنبي

ويطبق رورتي منهجه النقدي على قضية التأويل ، فنراه يرفض الصرامة المنهجية التي حاول بها الفلاسفة ضبط عملية التأويل ، ويرى أنه من المستحيل العثور على جواهر أو ماهيات أثناء تفحص الطريقة التي يشتغل بها النص ، كما يرى أن قراءة النصوص، إنما تتم على ضوء نصوص أخرى لأشخاص آخرين ، أو لبقايا معلومات ، فيرفض رورتي التأويل إذا كان بمعنى معرفة الحقائق أو المفاهيم الكلية كنظرية تجعل من بصيرة الفكر النموذج المبهم لأعلى أشكال المعرفة، كما يرفض الاعتقاد بأن الفكرة هي محتوى الفكر المبدع، القادر على النظر بمعنى النظر في الذات وحول الذات ، وعند رورتي من الخطأ القول، أن التعبير عن النظرية لا يتم إلا في إطار مرآة العقل ، أو القول بأن العقل هو مرآة المعرفة الإنسانية ولهذا انتقد رورتي

Coherenceنظرية الفيلسوف الإيطالي إمبرتو إيكو " التي تقول بأن التأويل يسير نحو تحقيق انسجام النص، وإبراز قدرة نظامه الداخلي على توجيه عملية التأويل ، ويرى " رورتي " أن هذا الانسجام لن يتم قبل أن يبلغ التأويل منتهاه ، أي أن يملك المؤول منطقا تأويليا يسوقه إلى وصل عناصر النص بعضها ببعض على سبيل ربط الأصوات والعلامات بمقام الحديث الذي تدور حوله ، كما لو أننا نقف على وظيفتها، لا على أنها تحيل على شيء من داخل النص ، أو من خارجه ، بل حسبها في ما تعبر عنه توا "

وهذا الرفض لفكرة الانسجام التي نادى بها " إيكو " ينبع في واقع الأمر من موقف رورتي وسائر البراجماتيين من فكرة الجوهر والحقيقة في التفكير الفلسفي " ففكرة وجود شيء ما يدور حوله النص المعطى ، شيء سوف يتيح التطبيق الصارم للمنهج كشفه ، هي فكرة لا تساوي أكثر مما تساويه الفكرة الأرسطية التي تقول بأن هناك شيئا يتطابق مع ما هو بالفعل ، في مقابل كل ما يبدو في الظاهر أنه طارئ وعلائقي "

وبالرغم من نقد " رورتي " للصرامة المنهجية ، ولفكرة الانسجام لم يستطع رورتي أن يتحاشي قيم الفروض المسبقة في بناء فهم المؤول داخل تجربة التأويل ، لكن ذلك لا يعني التركيز على عالم القارئ نفسه .

كما عارض رورتي التأويلات التي تكون ذات المنحنى السياقي أي التي تربط النص بظروف القول الاجتماعية أو النفسية للمؤلف ، ملحا على ضرورة الاهتمام بما يقوله النص، بغض النظر عن مؤلفه، وهو ما استبعده إيكو، لأنه من وجهة نظره من المتعذر إنكار القيمة التي تحتلها ظروف التلفظ التي تقود إلى صياغة فرضية حول مقاصد ذات التلفظ التي تقود إلى صياغة فرضية حول مقاصد ذات التلفظ التجريبية ، في تحديد اختيار المؤلف النموذجي

لقد حرص أمبرتو إيكو على وضع ضوابط للتأويل تعصم النص من الفوضى، والتأويلات الخاطئة من جهة أخرى ، وقد كان ذلك ردا على دعاوى اللامعنى، واللاحقيقة التي نادى بها التفكيكيين والبراجماتيين ذات النزعة التفكيكية، والتي تعطي المؤول حرية مطلقة في دخول النص وتأويله من أي زاوية يشاء خدمة لأغراضه ومقاصده ، فلا يعد وجود للتفاضل بين تأويل وآخر ، كما فعل رورتي عندما لا يتلفت في التأويل لا إلى المؤلف ولا إلى النص ليستنطق مقاصدهما ، ولكن يأتي إلى النص بغرض استعماله ، أو جعله يتطابق مع أغراضه الخاصة

لقد عاب " أمبرتو إيكو " على " رورتي " حصره فعل التأويل في الاستعمالات المختلفة للمؤلين، وإلغاءه الحدود والفواصل التي يجب أن تكون بين التأويل والاستعمال ، ودعوته إلى تعدد التأويلات بحسب ما يمنحه النص لنفس المؤول، حتى يصبح التأويل فعلا شخصيا يقوم على إعطاء القارئ سلطة إخضاع النص لمقاصده الخاصة، وهذه أغلوطة تؤكد تعالي الذات على الموضوع ، وقدرتها على إعادة تشكيله بما تراه ملائم لطبيعتها النرجسية ، وهذه الذات في الحقيقة هي الذات الأمريكية التي تعتقد بأنها أسمى الذوات ، وأنها مركز الذوات ، وأنها من القوة بحيث تستطيع أن تعيد صياغة العالم من حولها بالطريقة التي تناسب أحلامها وطموحاتها

إن " إيكو " يدعو إلى أن يكون النص مجالا للتأويلات المحتملة التي تتجدد وباستمرار ، وتركيزه على عالم النص وضبطه لعملية التأويل وفق ما يتيحه هذا النص من إمكانات لم تجعله يتحاشى قيمة الفروض المسبقة في بناء فهم المؤول داخل تجربة التأويل ، لكن لا يعني ذلك التركيز على عالم القارئ نفسه ، كما يرفض " إيكو " التأويلات ذات المنحنى السياقي ، أي التي تربط النص لظروف القول الاجتماعية أو النفسية للمؤلف ، ويلح على ضرورة الاهتمام بما يقوله النص بغض النظر عن مؤلفه "

والخلاصة لقد أبدى " رورتي " نفوره الشديد من القراءة المنهجية للنصوص ، ودعا إلى ما يمكن تسميته بالقراءة الملهمة ، فالقراءة المنهجية هي تلك التي ينتجها من يعتقد ، أما النقد اللامنهجي الذي يفضل تسميته بـ الملهم فهو الذي يحدث تحريفا لنصوص والمواقف المؤلفين ، ولكل ما تم تصنيفه ، وهو نوع من النقد يشيع الحب أو الكراهية بدلا من كلمة احترام للمؤلف أو النص ، كما قلل " رورتي " من أهمية التمييز بين النص واستعماله التي دعا إليها إيكو ، لأن كلاهما عنده مجرد استعمال للنص، وما يمكن أن نقوم به هو التمييز بين الاستعمالات المختلفة أي الاستعمالات التي تتم بواسطة أناس مختلفين لأجل أغراض متباينة ، وهذا ما انتقده عليه معاصروه.